حلقات الادب

فى الفسطاط

للاستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مدينة الفسطاط منذ القرن الثانى للهجرة مركزاً للتفكير والآداب، يحج اليه كثير من أعلام المشرق . وكانت مصر قد أخذت تتبوأ مكانها الفكرية والأدبية بين الأمم الاسلامية، منذ استقرت شئونها السياسية فى ظل الدولة العباسية . ولم تكن مصر منذ افتتحها الاسلام أكثر من ولاية تابعة للخلافة . ولكنها كانت بين ولايات الخلافة أشدها احتفاظاً بشخصيتها وألوانها القومية: وكانت منذ البداية تأخذ بنصيبها فى بناء صرح التفكير الاسلامى؛ ولكنها كانت تشق فى هذا الميدان طريقها الخاص . وكانت منذ الفتح مركزاً هاماً للسنة والرواية، يحتشد فيها جماعة كبيرة من الصحابة الذين اشتركوا فى الفتح والتابعين الذين عاصروهم[١] . وفى القرن الأول أيضا وضعت بذور الحركة الأدبية فنمت وأزهرت بسرعة، حتى أنه يمكن القول أن مصر كانت منذ القرن الثالث قد كونت أدبها العربى الخاص . ولم يأت القرن الرابع حتى كان هذا الأدب يتميز بخواصه المصرية القوية عما عداه من تراث التفكير العربى فى المشرق والأندلس .

وكانت الفسطاط عاصمة الاسلام فى مصر منذ قيامها عقب الفتح سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى منتصف القرن الرابع . وقد قامت بجوارها مدينتا العسكر والقطائع دهراً[٢] . ولكن العسكر كانت مركزاً للامارة والادارة فقط، وكانت القطائع وهى مدينة بنى طولون مدينة بلاط فقط، أما الفسطاط فكانت قلب الاسلام النابض فى مصر، ومهد التفكير والآداب فى تلك العصور. وحتى بعد أن قامت القاهرة المعزية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) لم تفقد الفسطاط أهميتها الفكرية والأدبية، بل لبثت بعد ذلك عصوراً تشتهر بحلقاتها ولياليها الأدبية. وكانت هذه الحلقات والليالى الأدبية من محاسن الفسطاط، يشيد بأهميتها وجمالها أدباء المشرق والمغرب الوافدين على مصر . وكانت فى الواقع نوعا من الأندية الأدبية Salons يجتمع فيها الأدباء والشعراء، للقراءة والسمر والجدل والمساجلة، وكانت مهاد اللقاء والتعارف بين الأدباء المحليين والنزلاء الوافدين من عواصم الاسلام الأخرى . وقد بدأت هذه الحلقات الأدبية فى الفسطاط منذ القرن الأول . ولكنها كانت فى بدايتها دينية فقهية، وكانت لها أهميتها فى تمحيص السنة والرواية . وكانت تجمع بين جماعة من أقطاب الفقهاء والحفاظ والمحدثين الذين يعتبرون فى الطبقة الأولى بين فقهاء الاسلام ورواة السنة، مثل يزيد بن حبيب، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب[١] ثم الشافعى وأصحابه . ثم اتخذت هذه الحلقات طابعاً أدبياً، فكان يمزج فيها بين الكلام والأدب، وكان معظم فقهاء هذا العصر أدباء أيضاً يأخذون من الأدب بحظ وافر، ولبعضهم فى النثر والشعر براعة خاصة . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء الامام محمد بن ادريس الشافعى قطب الشريعة وحجة التشريع، فقد كان أيضاً أديباً مبرزاً له فى الشعر والنثر محاسن وروائع وكذلك آل عبد الحكم الذين نذكرهم بعد؛ وأبو بكر الحداد قاضى مصر؛ والحسن بن زولاق المؤرخ فقد كان هؤلاء جميعاً من كبار الفقهاء والأدباء. وكان الفقه والحديث والادب تمتزج معاً فى مجالسهم وأسمارهم .. ولعل أبهى حقبة فى هذه الحلقات الشهيرة فى تاريخ الفسطاط مستهل القرن الثالث الهجرى ففى ذلك الحين كان الامام الشافعى نزيل الفسطاط وكان مدى الأعوام التى قضاها بمصر منذ قدومه اليها فى أواخر سنة ١٩٨ هـ[٢] (٨١٣م) حتى وفاته فى رجب سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م) قطب الحركة الفكرية فيها وكعبة الصفوة من فقهائها وأدبائها يجذبهم اليه غزير علمه ورفيع أدبه، وبارع خلاله. وكانت حلقات الفسطاط الأدبية شهيرة قبل مقدمه ولكنه اسبغ عليها بهاء وسحرا وروعة وكان ابو تمام الطائى الشاعر الأكبر اذا صحت الرواية عن مقدمه الى مصر صبياً واشتغاله بسقى الماء فى المسجد الجامع يغشى هذه المجالس الأدبية فى حداثته وفيها تفتحت مواهبه الأدبية والشعرية والظاهر أنه كان طبقاً لهذه الرواية يقيم فى الفسطاط فى خاتمة القرن الثانى او فاتحة القرن الثالث أعنى فى نحو الوقت الذى كان فيه الشافعى نزيلها[٣] . وكان أشهر هذه الحلقات أو الأندية حلقة بنى عبد الحكم . وهم أسرة مصرية نابهة كثيرة المال والوجاهة[٤]

---

١ يفرد ابن عبد الحكم فصلا طويلا لذكر الصحابة الذين دخلوا مصر وروى أهل مصر عنهم (فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ وما بعدها)

٢ مدينة العسكر أقامها الجند العباسيون فى شمال الفسطاط سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ومدينة القطائع أنشأها احمد بن طولون شمال الفسطاط مما يلى الشمال أيضا سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م)

١ توفى يزيد بن حبيب سنة ١٢٨ هـ، والليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ وعبد الله بن وهب سنة ١٩٧ هـ

٢ هذه هى رواية الكندى (امراء مصر ص ١٥٤) . ولكن ابن خلكان يقول إن مقدم الشافعى الى مصر كان فى أوائل سنة ١٩٩ (١ ص ٥٦٦) ورواية الكندى أرجح فى نظرنا

٣ راجع ابن خلكان فى ترجمة أبى تمام (١ ص ٣١٢)

٤ ابن خلكان فى ترجمه عبد الله بن عبد الحكم (١ ص ٣١٢)

أنجبت عدة من كبار الفقهاء منهم عميد الأسرة عبدالله بن عبد الحكم المصرى ، وهو من أقطاب الفقه المالكى وأولاده محمد وسعد ابنا عبد الحكم وكلاهما فقيه ومحدث كبير وعبد الرحمن بن عبدالحكم أقدم مؤرخ لمصر الاسلامية [١] . وقد كان بنو عبد الحكم منذ القرن الثانى أعلام الفقه والتفكير والأدب فى مدينة الفسطاط وكانت دارهم كعبة العلماء والأدباء ومنتدى للدراسات والأسمار الأدبية الرفيعة ، وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر العلماء الوافدين على مصر من مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فلما قدم الامام الشافعى الى مصر كان بنو عبد الحكم أول من استقبله وأكرم وفادته ؛ وأمدته الأسرة النابهة بالمال ونظمت له سبل الاقامة والدرس ؛ وكانت أول من انتفع بعلمه وأدبه [٢] وبث مقدم الشافعى فى آداب الفسطاط روحا جديدة وأشهرت مجالسه وحلقاته الفقهية والأدبية . وكانت حقبة علمية أدبية زاهرة (١٩٨ — ٢٠٤ هـ)

وكانت حلقات المسجد الجامع الى جانب الحلقات الخاصة ، أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة وكان المسجد الجامع أو جامع عمرو منذ انشائه سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) قلب الفسطاط الفكرى وكانت تعقد فيه مجالس القضاء الأعلى كما كانت تعقد مجالس الفقه والأدب الخاصة . وصحن المسجد الجامع شهير فى تاريخ الفسطاط الأدبى وقد كان مدى قرون ندوة فكرية أدبية جامعة وكانت بين جدرانه توجه حركة التفكير والآداب فى مصر الاسلامية . ويدور ما كتبه مؤرخو الفسطاط فى هذا العصر أن هذه الحلقات كانت دورية وكانت منظمة برغم صفتها الخاصة . وأنها كانت تعقد كل يوم تقريباً فى المسجد الجامع . ولكن الظاهر أن أهمها ما كان يعقد فى عصر يوم الجمعة ؛ وأن مجالس الجمعة كانت تعتبر كموسم اسبوعى يغص المسجد فيه بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء والنظارة . وفيها كانت البحوث الكلامية . والمناظرات الأدبية . والمطارحات الشعرية والرواية التاريخية تنظم فى حلقات فرعية أو متعاقبة [٣]

وكانت هذه الحلقات الأدبية الشهيرة تتأثر بتطور السياسة والأهواء السياسية والدينية ، اذ كانت موئل التفكير والدعوة الى مختلف المذاهب الفقهية والأدبية . ففى سنة ٢٢٦ هـ مثلا أمر محمد ابن أبى الليث قاضى قضاة مصر تنفيذاً لرغبة الخليفة الواثق بالله ، بالقبض على جميع الفقهاء والمحدثين والأدباء باسم الامتحان فى مسألة خلق القرآن وهى المعروفة بالمحنة فملئت السجون بالمئات من خلق من العلماء والأدباء ، وأغلق المسجد الجامع فى وجه المالكية والشافعية ، وفضت حلقاتهم العلمية والأدبية ، ومنعوا من زيارة المسجد ، ومن بث آرائهم ونظرياتهم [٤] واتخذ بنو عبد الحكم فوق أخذهم بالمحنة بتهمة أخرى ، هى تنديد أموال طائلة اتتدوا عليها من على بن عبد العزيز الجروى ، وهو زعيم خارج تغلب حينا على بعض نواحى مصر ثم أخمدت ثورته ، واتهم بالخيانة ، وقضى بمصادرة أمواله ، فاتهم باخفائها بنو عبد الحكم ، وقبض عليهم وعذبوا واستصفيت أموالهم أداء لما قضى به وتوفى بعضهم فى السجن (سنة ٢٣٧ هـ) ثم أفرج عنهم بعد ذلك ، ولكن هذه المحنة ذهبت بوجاهة الأسرة النابهة وجاهها وهيبتها [٥] فاضمحل نفوذ هذه الفكرة وتضاءلت أهمية هذه الحلقات الأدبية الباهرة التى اشتهرت بتنظيمها وعقدها زهاء نصف قرن . وفى نفس هذا العام أمر الحارث بن مسكين قاضى القضاة بمطاردة الفقهاء الحنفية والشافعية واخراجهم من المسجد الجامع وقطع أرزاقهم وحظر اجتماعاتهم [٦]

وهكذا شتت شمل المجتمع الفكرى فى الفسطاط حيناً وانزوت حلقاتها الأدبية الزاهرة حتى منتصف القرن الثالث ولكنها عادت فانتظمت وازدهرت واستعاد المسجد الجامع هدوءه وسكينته وردت حرية الاجتماع والدرس . وجاءت الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) (٨٦٨ - ٩٠٥ م) فأزهرت فى ظلها الآداب والفنون وكان أحمد بن طولون أميراً مستنيراً يحب العلوم والآداب ويرعاها بتعضيده وحمايته ، ويجل مجالس العلم وحلقات الأدب [٧] . وكانت الفسطاط ومسجدها الجامع أيضا مثوى الحلقات والمجالس العلمية والأدبية فى هذا العصر ، لأن مدينة القطائع التى شيدها ابن طولون لم تكن كما قدمنا سوى مدينة بلاط وبطانة . ونبغ فى هذه الحقبة القصيرة عدد كبير من الأدباء والشعراء وبكت دولة الشعر ، دولة بنى طولون عند ذهابها أيما بكاء . فقال شاعرها سعيد القاص من قصيدة طويلة رائعة — :

---

١ توفى عبد الله بن عبد الحكم سنة ٢١٤ هـ وتوفى ولده عبدالرحمن سنة ٢٥٧ هـ وابنه محمد سنة ٢٦٩ هـ

٢ ابن خلكان (١ ص ٢١٢)

٣ راجع فى الاشارة الى حلقات بعض المجالس بالمسجد الجامع — ابن زولاق فى كتاب أخبار سيبويه المصرى (الصورة الفوتوغرافية للمخطوط المحفوظ بمعرض دار الكتب وهى رقم ٤١٢٠ تاريخ) ص ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٧

١ الكندى تسمية قضاة مصر — ص ١٢٧

٢ الكندى — كتاب القضاة — ص ١٣٧ و ١٣٨

٣ » » » » — ص ١٤٣

٤ ابن خلكان ١ ص ٦٩

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بنى طولون والانجم الزهر
وفقد بنى طولون فى كل موطن
أمر على الاسلام فقدا من القطر
تذكرتهم لما مصرا فشابها
كما ارفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر

وفى أوائل القرن الرابع كانت الفسطاط تضم جماعة كبيرة من أقطاب المفكرين والأدباء وكانت ابهاؤها ومجالسها الأدبية حافلة زاهرة . ففى تلك الفكرة اجتمع من رعماء التفكير والأدب أبو القاسم بن قديد وتلميذه أبو عمر الكندى مؤرخ الولاة والقضاة ، وأبو جعفر النحاس المصرى الكاتب والشاعر ، وأبو بكر الحداد قاضى مصر ، وأبو القاسم بن طباطبا الحسنى الشاعر ، وأبو بكر بن محمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى ، والحسن بن زولاق المؤرخ الأشهر [1] وكثيرون غيرهم : فكان لاجتماع هذه الصفوة العلمية والأدبية البارزة فى هذه الفترة أثر كبير فى ازدهار الحركة الفكرية بمصر فى أوائل القرن الرابع . فكانت حلقات الأدب فى أوج نشاطها وكان المسجد الجامع يومئذ جامعة حقة يموج بهذه الاجتماعات العلمية والأدبية الشهيرة. وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال وأخذت مصر تأهب للقيام بدورها فى رعاية التفكير الاسلامى فى المشرق وكان بنو الاخشيد ، محمد بن طغج وولداه انوجورو على ثم وزيرهم الخصى الناب كافور ، مدى دولتهم التى استمرت زهاء ثلث قرن (سنة ٣٢٤ — ٣٥٨ هـ) (٩٣٥ — ٩٦٩ م) حماة للعلوم والأدب . وقد انتهى الينا من آثار الحسن بن زولاق المؤرخ ، أثر هام يلقى ضياء على تاريخ الحركة الأدبية المصرية فى هذا العصر وهو كتاب « أخبار سيبويه المصرى » وهو أبو بكر بن موسى الذى سبقت الاشارة اليه وقد كان صديقا لابن زولاق وزميلا له فى الدرس على ابن الحداد [2] وكانت له أخبار وملح ونوادر أدبية طريفة عنى ابن زولاق بجمعها فى هذا الكتاب . وفى دار الكتب نسخة خطية وحيدة من هذا الأثر لاريب أنها من أقدم المخطوطات العربية التى وصلت الينا بل لقد انتهينا فى تحقيق شأنها الى انها أقدم مخطوط أدبى مصرى وصل الينا وأنها من آثار عصر الفسطاط ذاته وبخط ابن زولاق نفسه [1] .

وفى اثر ابن زولاق هذا اشارات كثيرة الى حلقات الفسطاط الأدبية فى عصره أعنى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى. ويبدو من سياق كلامه ان المسجد الجامع كان مثوى لأهم هذه الحلقات وأشهرها وأنها كانت كما قدمنا دورية منتظمة تنعقد على الأغلب فى عصر يوم الجمعة وتجمع بين الفقهاء والأدباء وينعقد فيها الجدل الكلامى والحوار الأدبى والشعرى . والظاهر أيضاً أن هذا الجدل أو الحوار كان ينتهى أحياناً الى بعض ما ينتهى اليه فى عصرنا من مراوغة واتهام وتراشق وان بعض المفكرين الأحرار كانوا ينقمون من عصرهم ما ننقم من عصرنا أحيانا من اعتداء على حرية الرأى والبحث وأن بعضهم كان يرمى بتهم المروق والالحاد اذا أطلق لنفسه حرية البحث والرأى على نحو ما يشير اليه سيبويه المصرى فى قوله من قصيدة أوردها ابن زولاق

اما سبيل اطراح العلم فهو على
ذى اللب أعظم من ضرب على الراس
فان سلكت سبيل العلم تطلبه
بالبحث أبت بتفكير من الناس
وان طلبت بلا بحث ولا نظر
لم تضع منه على ايقان ايناس
وانبذ مقالة من ينهاك عن نظر
نبذ الطبيب بذل القرحة الآسى [2]

وهذه ظاهرة فكرية خطيرة يسجلها الشاعر المصرى على عصره اعنى أوائل القرن الرابع (حول سنة ٣٢٠ — ٣٤٠ هـ) وهى تدل على أن الجدل العلمى والأدبى كان يرتفع يومئذ الى مرتبة الايمان والعقيدة أحيانا ويتحدر أحيانا أخرى الى درك التراشق والمهاترة . كذلك هنالك فى قول الشاعر ما يدل على أن بعض

---

١ قول ابن قديد سنة ٣١٢ هـ وأبو عمر الكندى سنة ٣٥٠ هـ وأبو جعفر النحاس سنة ٣٣٨ هـ وأبو بكر الحداد سنة ٣٤٥ هـ وابن طباطبا الحسنى سنة ٣٤٥ هـ وسيبويه المصرى سنة ٣٥٨ هـ والحسن بن زولاق سنة ٣٨٧ هـ

٢ راجع السيوطى — حسن المحاضرة — ج ١ ص ٢٥٤ وراجع بحثى عن الحسن بن زولاق فى ملحق السياسة الادبى عددى (٢٨٤٦ و ٢٩٠٦)

١ راجع تحقيقا مستفيضا نشرته به فى شأن هذا المخطوط موبدا بالوثائق والادلة الخطية والتاريخية وقد نشر مع صور فتوغرافية لهذه الوثائق فى ملحق السياسة الادبى عدد ٢٧٨٥

٢ راجع هذه القصيدة بأكملها فى كتاب أخبار سيبويه (ص ٩ من المخطوط وما بعدها) واعتقد ان فى هذه الابيات تحريفا يرجع الى صعوبة القراءة نظرا لقدم المخطوط وتشويهه فى مواضع كثيرة . ولكن معانيها ظاهرة متناسقة

المفكرين والأدباء كانوا يؤثرون الصمت على الجهر بآرائهم خيفة الاتهام والوقيعة.

وقد كانت حلقات المسجد الجامع بلا ريب أهم الحلقات الأدبية العامة ولكن هناك فى أقوال ابن زولاق ما يدل على أنها كانت تعقد أيضا فى بعض المساجد الأخرى فلا كان الشاعر الأكبر أبو الطيب المتنبى الذى وفد على مصر سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) ليستظل بحماية بنى الأخشيد يجلس فى مسجد يعرف بمسجد ابن عمرو من وهناك يجتمع اليه الأدباء والشعراء؛ وكانت حلقة المتنبى بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة فى هذا العصر[1] هذا وأما عن الحلقات والأندية الخاصة فيشير ابن زولاق الى المجالس العلمية والأدبية التى كان يعقدها محمد بن طغج (الأخشيد) وولده أنوجور[2] ثم مجالس الوزيرين ابن الفضل جعفر بن الفرات والحسين بن محمد للمارداني[3]. والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الأدبية كانت يومئذ من تقاليد الحياة الرفيعة وكانت نوعا من الترف الذى يأخذ به الأمراء والعظماء والأسر الكبيرة فان لهم جميعاً على نحو ما بينا فى سير الأبهاء الأدبية فى تلك العصور أكبر نصيب وذكر، ويرجع اليهم فى أقامتها ورعايتها أكبر الفضل.

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان

١ راجع ص ٤٨ و ٤٩
٢ ص ٣٦ من المخطوط
٣ ص ٣٣ و ٤٠ من المخطوط

أثر الثقافة العربية

« بقية المنشور على ص ٨ »

واخضعت لسلطانها حضارات لم تخضع لفاتح من قبل. وسخرت لدعايتها خصوماً لم يتحرروا من آثارها بعد.

ولو رحنا نتلمس أسرار هذه القوة وأسباب تلك العظمة وجدناها أولا فى الهام الطبع وسلامة الفطرة وجاذبية المثل الأعلى وثانياً فى القابلية الطبيعية لفقه الحضارة، وهى صفة لا تكتسب عفو الخاطر ولا طوع التقليد. وانما تأصل فى الشعب بتقادم عهده فى الثقافة وطول رياضته على التمدن. فالعرب لم يكونوا جميعاً كما يصورهم الأدب القديم جفاة الطباع بداة الاجتماع. وانما كان منهم فى اليمن والحجاز والشام والعراق متحضرون لانبوا أرق أمم العالم بالتجارة منذ ألفى سنة، وكان لهم قبل الاسلام ثقافة أدبية ومدنية لغوية لم يكن من المعقول أن تظهرا فى التاريخ فجأة. فان تطور الأفراد والشعوب والأنظمة والعقائد تدريجى بطىء لا يبلغ كماله الا حالا على حال ودرجة بعد درجة. والحق أن الأخبار والآثار والعقل تتناصر كلها على اثبات حضارة عربية فى المدن الجاهلية. واذا كان بدو الجزيرة هم الذين انتجوا الشعر وفتحوا الفتوح فان حضر الحجاز هم الذين حكموا الناس ونشروا المعرفة وأقاموا الحضارة.

(لها بقية)

مرجريت

أو

غادة الكميليا

للكاتب الفرنسى اسكندر دوماسى

نقلها عن الفرنسية

الدكتور أحمد زكى الأستاذ بكلية العلوم

وهى قصة من روائع الأدب الفرنسى الخالدة. عواطفها متقدة ومواقفها قوية وموضوعها انسانى وترجمتها من السهل الممتنع، جمعت بين متانة الأسلوب وحلاوة الانسجام وأمانة النقل. تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة ثمنه ١٥ قرشاً.

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

نقلها الى العربية

احمد حسن الزيات

وهى قصـــة من الشعر المنثور قوية العاطفة دقيقة الوصف رائعة الأسلوب. تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة رقم ٣٩ ومن المكاتب الشهيرة والثمن ١٥ قرشاً